شعيب ومدين (كانوا مستبصرين)

الأحد 2011/11/27 المصدر : الأنباء عدد المشاهدات 3019

بقلم : فيصل الزامل

ازدهر اقتصاد بلاد «مدين» بسبب مينائها التجاري في شمال البحر الأحمر - المويلح، قرب تبوك - حيث تفرغ القوافل القادمة من فارس والهند وبلاد ما وراء النهر بضائعها في الميناء لتنقلها السفن والعبارات الى ميناء «ساو» في الجانب الغربي ثم تأخذها القوافل عبر صحراء سيناء وجبالها السود الى بلاد فرعون. أدى هذا النشاط الى انتشار العمران في «مدين» ومجيء البنائين المهرة والأدباء والشعراء اليها، عرف الآباء المؤسسون هناك قيمة موقع «مدين» فسهلوا للتجار أعمالهم وبنوا لهم «خان» كبيرا للإقامة فيه، ثم مضى جيل المؤسسين وجاء أبناء دفعتهم منافسة الشباب الى نقض القيم التجارية التي اشتهرت بها «مدين»، قال لهم نبيهم شعيب (ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير)، فعلا كانوا بخير حال، رواج اقتصادي وازدهار أديا الى نمو حجم المدينة فامتدت المساكن من ساحل البحر الى الوديان الخصيبة بين الجبال المحيطة بمدين فكثرت المزارع وكانت ثمارها بالغة الجودة حتى إنهم كانوا يجففونها ويصدرونها مع التجار، وبلغ اعجابهم بشجر الأيكة الكثيرة الأغصان أن عبدوها حتى سماهم القرآن الكريم بها «أصحاب الأيكة» ولاتزال مساكنهم الباقية الى اليوم تشير الى حجم ذلك الازدهار، (وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين).

كان ميناء «مدين» معروفا لدى المصريين ولذلك قصدها موسى عليه السلام عندما فر من فرعون، «وبلغ ماء مدين» سنة 1556 قبل الميلاد، يومها كانت المدن تنسب الى الآبار لأهميتها لهم ولماشيتهم وللزراعة، لم يستطع موسى عليه السلام أن يقصد الخان لعدم امتلاكه المال، وأيضا لوجود رجال فرعون في المدينة، ذهب الى المراعي المحيطة بالمدينة، وهناك التقى بالنبي شعيب عليه السلام فلما قص عليه قصته قال له (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) وتزوج في «مدين» ابنة شعيب عليه السلام الذي كان في سن متقدمة فاستعمل «الاجارة التشغيلية» كمهر لابنته (على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك)، كان الرجل عارفا بشؤون الاقتصاد ولهذا ساءه انحراف المعاملات ونقص المكيال بين الناس، كان يتردد عليهم في مجالسهم قرب الميناء، ينبههم الى المخالفات التي وقعوا فيها إلا أن ذلك لم يعجب أبناء التجار السابقين الذين أسسوا لهم هذه المدينة الرائعة التي ذاع صيتها كبوابة الشرق الى افريقيا، فلم يحافظوا على روعتها، وأوصلتهم المنافسة على الثروة الى الغرور، قالوا له (يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء)، لم يستوعبوا تحذيره لهم بأن المعاملات الفاسدة نذير شؤم ودمار على الدولة بأسرها، وما منعهم أن يفتكوا بشعيب إلا (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك)، نعم، لم يكونوا يفقهون، اعتبروا امتلاك الثروة التي ورثوها سببا للاستمتاع بها دون الخوف من زوالها، ولم يستمعوا لتحذيرات الرجل الصالح (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) ذكرهم بما أصاب أمما أخرى قبل فترة قصيرة (أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم

ببعيد) وشبك أصابع يديه لقرب تلك الأمثلة منهم في الزمان والمكان.

فشلت جهود شعيب عليه السلام فقال (يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل) امضوا في طريقتكم وسأمضي أنا في طريقي، وهذا من أشد التهديد، إنه الإنذار الأخير، (سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود).

لقد ذهب ذلك العمران وطمست تلك المباني والمزارع وهجر الناس الميناء، وصار أهل البلاد القريبة يتحدثون عنهم (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين).